سموُّ الفقر
في المصلح الاجتماعيِّ الأعظم
ـ ٢ ـ

قالت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ : لم يمتلئ جوفُ النَّبيِّ ﷺ شِبَعاً قطُّ ، وإنَّه كان في أهله لا يسألهم طعاماً ، ولا يتشهَّاه ؛ إن أطعموه ؛ أكل ، وما أطعموه ؛ قَبِل ، وما سقَوْه ؛ شَرِب[١] .

وقالت : ما شَبع آلُ محمَّدٍ من خبزِ الشَّعير يومين متتابِعين حتَّى قُبض رسولُ الله ﷺ[٢] .

وعنها: كنَّا آلَ محمَّدٍ نمكثُ شهراً ما نَسْتَوْقِدُ بنارٍ، إنْ هو إلا التَّمرُ، والماء[٣] .

وقالت : ما رَفع رسول الله ﷺ قَطُّ غداءً لعشَاءٍ ، ولا عَشاءً لغداءٍ ، ولا اتَّخذ من شيءٍ زَوجَيْن ؛ لا قميصين ، ولا رداءين ، ولا إزارين ، ولا زوجين من النِّعال .

ويروى عنها ، قالت : تُوفي رسولُ الله ﷺ وليس عندي شيءٌ يأكله ذو كَبِدٍ ، إلا شطرُ شعير في رَفٍّ لي[٤] .

وقالت : توفي رسول الله ﷺ ودِرْعُه مرهونةٌ عند يهوديٍّ في ثلاثين صاعاً من شعيرٍ[٥] .

وعن ابن عباسٍ : كان رسولُ الله ﷺ يَبيتُ اللَّياليَ المتتابعةَ ، وأهلَه طاوياً لا يجدون عَشاءً ، وإنَّما كان خبزهم الشَّعير[٦] .

---

(١) انظره في : الشفا ؛ للقاضي عياض (١٣٤) .
(٢) رواه البخاري (٦٤٥٥) ومسلم (٢٩٧٠) .
(٣) رواه البخاري (٦٤٥٨) ومسلم (٢٩٧٢) .
(٤) رواه البخاري (٦٤٥١) ومسلم (٢٩٧٣) .
(٥) رواه البخاري (٢٢٠٠) ومسلم (١٦٠٣) .
(٦) رواه الترمذي (٢٣٦١) .

وعن الحسن ، قال : خطب رسول الله ﷺ فقال : « واللهِ ما أمسَى في آل محمدٍ صاعٌ من طعامٍ ، وإنَّها لتسعةُ أبيات ! » والله ما قالها استقلالاً ، ولكن أراد أن تتأسَّى به أمَّتُه[١] .

وعن ابن مجيرٍ ، قال : أصاب النَّبيَّ ﷺ جُوعٌ يوماً ، فعمَدَ إلى حَجَرٍ ، فوضَعَه على بطنه ، ثم قال : « ألا رُبَّ نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ في الدُّنيا جائعةٌ عاريةٌ يوم القيامة ، ألا ربَّ مُكْرِمٍ نفسَه وهو مُهينٌ لها ، ألا ربَّ مُهينٍ نفسَه وهو مكْرِمٌ لها »[٢] .

وخُيِّرَ ﷺ أن يكونَ له مثلُ « أحُدٍ » ذهباً فقال : « لا يارب ؛ أجوعُ يوماً ، فأدعوك ، وأشبعُ يوماً ، فأحمَدك ! »[٣] .

وكان يقول في دعائه ، ويُكْثِر منه : « اللهم أحْيِني مِسكيناً ، وأمتْني مِسكيناً ، واحشُرْني في زُمرة المساكين »[٤] .

* * *

هذا هو سيِّد الأمَّة ، يُمسِكهُ في الحياة نبيّاً عظيماً ما يُخْرجُ غيرَه منها ذليلاً مُحتقَراً ، وكأنَّما أشرق صفاءُ نفسه على تراب الأرض ، فردَّه أشعةَ نورٍ ، على حين يُلقى الناسُ على هذا الترابِ من ظلام أنفسهم ، فلا يَبْقى تراباً ، بل يرجعُ ظلاماً ، فكأنَّهم إذْ يمشون عليه يَطَؤون المجهولَ بخَوْفه ، ورَوْعتِه ، ثم لا يستقرُّ ظلاماً بل يرجعُ آلاماً ، فكأنَّهم يَنْبُتون على المرض ، لا على الحياة ، ثُمَّ لا يثبتُ آلاماً ، بل يتحوَّلُ فوْرةً ، وتوثُّباً تكونُ منه نزَوَاتُ الحمقِ والجنونِ في النَّفس .

هؤلاء الذين تعيش أنفسُهم في التراب ، ويتمرَّغون بأخلاقهم فيه ، ينقلبون على الحياة من صنع التُّراب ناساً دُوداً كطبع الدُّود ، لا يقعُ في شيءٍ إلا أفسده ، أو قذَّره ؛ أو قوماً سُوساً كطبع السُّوسِ ، لا ينالُ شيئاً إلا نَخره ، أو عابه ، فهم يوقِعُون الخلَلَ في نظام أنفسهم ، فإذا هي طائشةٌ تُخيِّل لهم كأنَّما اختلَّت نواميسُ الدُّنيا ،

---

(١) انظره في : الطبقات الكبرى ؛ لابن سعد (١/ ٢/ ١٤) .

(٢) رواه البيهقي في شُعَب الإيمان (١٤٦١) والقضاعي في مسند الشهاب (٨٧٠) .

(٣) رواه أحمد (٥/ ٢٥٤) والترمذي (٢٣٤٧) .

(٤) رواه الترمذي (٢٣٥٣) .

وكأنَّ الله قَبَضَهم ، وبسط غيرَهم ، وشَغَلَهم ، وفَرَّغَ مَنْ عداهم ، وابتلاهم على مُسْكةِ الرِّزق[١] بالشَّهوة المسعورةِ الَّتي لا تتحقَّقُ ، فضرَبَهم بالمجاهَدة التي لا تنقطع ؛ وأنعم على غيرهم في بَسْطَةِ الرزق بالشَّجرةِ المسحورةِ التي لا تُقطَعُ منها ثمرة إلا نبت غيرُها في مكانها .

إن ما وصفناه من فقر النَّبي ﷺ ، وأنَّه لم يكن له عتيدٌ[٢] حاضِرٌ ، وأنَّه لم يجعلْ نفسَه في همِّ المال ، ولا جعلته نفسُه في همِّ الفقر ، وأنَّه لقي الحياةَ حاملاً لا محمولاً ، واستقرَّ فيها هادئاً ، لا مضطرباً ـ كلُّ ذلك إنَّما يُثْبِتُ للدُّنيا : أنَّه خُلِقَ ، وبُعِثَ ، وعاش ؛ ليكونَ درساً عملياً في حل المشكلات الاجتماعيَّة ، يعلِّم النَّاسَ : أنَّها لا تتعقَّد بطبيعتها ، ولكن بطبائعهم فيها ، ولا تستمرُّ بقوَّتها ، ولكن بإمدادِ قواهم لها ؛ ولا تَغْلِبُ بصَوْلتها[٣] ، ولكن بجزعهم منها ؛ ولا تُعْضِلُ من ذاتِ نفسها ، ولكن من سوء أَثَرِهم عليها ، وسوء نظرهم لأنفسِهم ، ولها .

فإذا قرأتَ الأحاديثَ التي أسلفناها ؛ فلا تقرأها زهداً ، وتَقَلُّلاً ، ولا فقراً ، وجُوعاً ، ولا اختلالاً ، وحاجةً ، كما تُتَرْجِمُها نفسُك ، أو تُحِسُّها ضرُورتُك ؛ بل انظر فيها واعتَبِرْها بنفسه هو ﷺ ، ثمَّ اقرأها شريعةً اجتماعيةً مُفصَّلة على طبيعة النَّفس ، قائمةً على أن تأخذَ نفسُ الإنسان من قُوَى الدُّنيا عناصرَها الحيويَّة ، لتُعطِيَ الحياةَ من ذلك قوَّةَ عناصرها .

والحياةُ العاملةُ غيرُ الحياة الوادعة ، هما ذكرٌ ، وأنثى ، فأمَّا الأولى ؛ فهي ما وصفنا ، وحكَينا ، وأمَّا الثَّانيةُ ؛ فهي تَغَلُّلُ النِّعمة ، وإطلاقُ قانونِ التناسلِ في المال يَنمِّي بعضُه بعضاً ، ويَنْبُتُ بعضُه على بعض ، ثُمَّ إقامةُ الحياة على الزِّينة ، ومُقَوِّماتِها ، وقيامُ الزِّينة على الخداع ، وطبائعِه ، فيُقْبِلُ المرء من دنياه على ما هو جدير أن يصرفَهُ عنها ، ويحبُّ منها ما كان ينبغي أن يباغِضَه فيها . وكلُّ ما رأيتَ ، وعلمتَ في رجلٍ قُوَّتُه القوَّةُ ؛ فهو هناك ؛ وكل ما علمتَ ، ورأيتَ في أنثى قوَّتُها الضَّعفُ ؛ فهو هنا .

فالسَّوادُ الذي تراه في فقره ﷺ هو السَّوادُ الحيُّ ؛ سوادُ اللَّيلِ حولَ الرُّوح

---

(١) « مسكة الرزق » : ضد بسطة الرزق ؛ أي : الضِّيق ، والسَّعة .

(٢) « عتيد » : هو المهيَّأ ، والحاضر ، والمُعَدُّ .

(٣) « صولتها » : الصولة : السطوة ، والقدرة ، والقهر .

النَّجْمِيَّةِ السَّاطعة ؛ وذلك التُّرابُ هو التُّرابُ الحيُّ ؛ ترابُ الزَّرع تحت النَّضْرَة ، والخُضرَة ؛ وتلك الحاجةُ الجسمية هي الحاجةُ الحيَّة الدَّافعة إلى حرِّية النَّفس ؛ وذلك الإقلال من فهم اللَّذة هو الإقلال الحيُّ الَّذي يزيد قوةَ فهم الجَمالِ في السَّماء ، والأرض ، وما بينهما ؛ وذلك الضِّيقُ في حَيِّزِ المَتاعِ للحاسَّة هو الضِّيقُ الحيُّ الذي يُوَسِّع حَيِّزَ المتاعِ للرُّوح . وبالجملة فذلك النَّقص من المادَّة لم يكن إلا لنفي النَّقص عن الفضيلة ، وذلك الاحتقارُ للعَرَض الفاني الزَّائل هو المعنى الآخرُ لتقديس الخالدِ الباقي .

فليس هناك خُبزُ الشَّعير ، ولا الجوعُ ، ولا رهنُ الدِّرع عند اليهوديِّ . كلاَّ ! كلاَّ ! بل هنا حقيقةٌ نفسيَّةٌ عقليَّةٌ ، ثابتةٌ متَّزِنةٌ ، قائمةٌ بعناصرها السَّامية : من اليقين ، والعقل ، والحكمة ، إلى الرِّفقِ ، والحِلْم ، والتَّواضع ، تخبرُ هذه الدُّنيا العلميَّة ، الفلسفيَّةَ ، المفكِّرةَ : أنَّ ذلك النَّبيَّ العظيمَ هو الرَّجلُ الاجتماعيُّ التَّامُّ بأخلاقه ، وفضائله ، وهو الذي بُعِثَ ؛ لتنقيح غريزةِ تنازُع البقاء ، وكَسْرِ هذه الحيوانيَّة ، وقَمْعِ نزَواتها ، وإماتةِ دَواعيها ، والسُّموِّ بخواطرها ؛ فهو بنفسه صورةُ الكمال ؛ الذي بُعث لتحقيقه ، وإثبات : أنَّه الممكنُ ، لا الممتنع ، والحقيقيُّ ، لا الخياليُّ .

ليس هناك دِرْعٌ مرهونةٌ في ثلاثين صاعاً ، ولا الفقرُ ، ولا خبزُ الشَّعير ، كلا ! كلا ! بل هناك تقريرُ : **أنَّ النَّصرَ في معركة الحياة لا يأتي من المال ، والثَّراء ، والمتاع ، ولكن من المعاناة ، والشِّدَّةِ ، والصَّبر ، وأنَّ التَّقدُّمَ الإنسانيَّ لا يباع بيعاً ، ولا يؤخَذُ هَوْناً ؛ بل هو انتزاعٌ من الحوادث بالأخلاق ؛ الَّتي تتغلَّب على الأزَمَات ، ولا تتغلَّب الأزَمَاتُ عليها** ، وأنَّ هذا المالَ ، وهذه الشَّهوات ـ في حقائق الحياةِ ، ومَصَائرها ـ ككُنوزِ الأحلام : لا تكونُ كنوزاً إلا في مواضعها من أرض الغَفْلةِ ، والنَّوم ، فلا لذَّة منها إلا بمقدارِ خفيفٍ من هذه الغفلة . وليس إلا الأحمقُ ، أو المخذولُ ، أو الضَّائعُ هو الذي يقطع العمرَ نائماً أبداً ؛ ليظلَّ مالكاً أبداً لهذه الكنوز . . . وهو يعلم : أنَّه لا بدَّ مستيقظٌ ، وأنَّه متى انتبه في آخرته ؛ لم يجد منها شيئاً ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور : ٣٩] .

كلا ! كلا ! ليس هناك فقرٌ ، ولا جوعٌ ، وما إليهما ، بل هناك وَضْعُ هذه الحقيقة : ينبغي أن تجدَ نفسَك ، وموضعَ نفسِك ، وإيمانَ نفسِك ، وعزَّةَ نفسِك ،

فإذا أدركت ذلك ، ورفعت نفسَك إلى موضعها الحقِّ ، وأقررتَها فيه ، وحبستَها عليه ، وَحَدَّدتَها بالإنسانيَّة من ناحيةٍ ، وبالله من النَّاحية المقابلة ؛ رأيتَ إذاً أنَّ قيمتك الصَّحيحةَ في أن تكونَ وسيلةً تُعطي ، وتعملُ ؛ لتُعطِي ، لا غايةً تأخذُ ، وتعملُ ؛ لتأخذ ، ومهما ضُيِّقَ عليك ؛ فإنَّما أنت كالشَّجرةِ الطَّيِّبة تأخذُ تراباً ، وتصنعُ حَلاوةً .

وما قطُّ نبتتْ شجرةٌ في مكانها ؛ لتأكلَ ، وتشربَ ، وتختَزِنَ السَّمادَ ، والتُّراب ، وتحصِّنَهما ، وتمنعَهما عن غيرها ، ولو قد فعلتْ ذلك شجرةٌ ؛ لكان هلاكُها فيما تفعل ؛ إذ تحاولُ أن تضاعِفَ فائدتَها من قانون العالم ، فيكونُ طمعُها سريعاً في إفساد الصِّلةِ بينهما ، فلا يجدُ القانونُ فيها نظامَه ، ومن ثَمَّ لا تجدُ في القانون نظامَها ، فيُهلِكُها الذي كان يُحييها ، وتستعبدُ لحظِّ نفسها ، فيُفْقِدُها ذلك حريةَ الحياة التي كانت لها في نفسها .

* * *

يقول نبيُّنا ﷺ : « إنَّ المؤمنَ بكلِّ خير على كلِّ حالٍ ، إنَّ نفسَه تُنْزَعُ من بين جنبيه ؛ وهو يَحْمَدُ الله عزَّ وجلَّ »(١) . فهذا هو أسمى قانونٍ اجتماعيٍّ يمكن أن تظفَرَ به الإنسانيَّةُ ، وما يأتي لها ذلك إلا إذا أصبحتْ تلك المعاني التي أومأنا إليها شعوراً اجتماعيّاً عامّاً مقرَّراً في النَّفس ، قائماً فيها على إيمانٍ راسخٍ بأنَّ الفردَ هو صورة المجتمع ، لا صورةُ نفسه وحدها ، وأنَّ النَّاسَ كحَبِّ القمح هو السُّنبلة ، ليس لجميعه إلا قانونٌ واحد ، فموضعُ كلِّ حبَّةٍ من السُّنبلة هو ثروتُها ، عَلَتْ ، أو سَفَلَتْ ، وكَثُرَ ما تأخذهُ ، أو قلَّ ؛ وإذا كان أساسُ الحياة في الحبَّة منها أن تجدَ قوامَها ، وكِفايتَها من مادَّة الأرض ، فتمامُ الحياة فيها أن يَغْمُرَهَا النُّورُ مِن حولها ، وأن يستمرَّ النُّورُ من حولها يغمرُها .

فالحبَّة من السُّنبلة بكلِّ خيرٍ على كلِّ حالٍ ، وإنَّها لتُنْزَعُ وما بها أنَّها نُزِعتْ ، ولكنَّها أدَّت ما تؤدِّي ، وانقطعتْ من قانونٍ لتتَّصلَ بقانونٍ غيره ، وما اغتنَتْ ، ولا افتقرتْ ، ولا أكثرتْ ، ولا أَخَفَّتْ ، بل حقَّقت موضِعها ، فإنَّها ما نبتتْ ؛ لتبقى ، وما نمتْ إلا لينقطعَ نماؤُها . وكذلك المؤمنُ الصَّحيحُ الإيمانِ ، الصَّادقُ

---

(١) رواه ابنُ أبي الدنيا في كتاب الشكر (ص١٠٥) .

النَّظرِ في الحياة : هو أبداً في قانونِ آخرتِه ، فهو أبداً في عملِ ضميره .

والنَّاسُ في هذه الحياة كحَشْدٍ عظيمٍ يتدفَّق من مَضِيقٍ بين جبلين ، ينفُذُ إلى الفضاء ؛ فإذا هم أدركوا جميعاً أنَّهم مُفْضُونَ إلى هذه النِّهاية مرُّوا آمنين ، وكان في يقينهم السَّلامة ، وفي صبرِهم الوقاية ، وفي نظامِهم التَّوفيق ، وفي تَعَاونهم الحياة ؛ فهم بكلِّ خيرٍ على كلِّ حالٍ ، ما دام هذا قانونَ جميعهم ؛ فأيُّما رجلٍ شَذَّ منهم ، فاضطربَ ، فطاشَ ؛ هَلَكَ ، وأهلك مَن حولَه ، ومن عكَسَ منهم موضِعَه ، ونكَصَ على عَقِبَيه ؛ أهلك من حَولَه ، وهَلَكَ . والموتُ أشقى الموتِ هنا في هذا المضيقِ بين الجبلين ، اعتبارُ الحاضِرِ حاضراً فقط ، والضَّجرُ منه ، وجعلُ كلِّ إنسانٍ نفسَه غايةً . والحياةُ أهنأُ الحياة : اعتبارُ الحاضر بما وراءه ، والصَّبرُ على شدَّته ، وجعلُ الإنسانِ نفسَه وسيلةً .

* * *

فذلك معنى خبز الشَّعير ، والقلَّة ، والضِّيق ، ورهنِ الدِّرع عند يهوديٍّ من سيِّدِ الخَلْق ، وأكملهم ، ومن لو شاء ؛ لمشى على أرضٍ من الذَّهب . فهو ﷺ يعلِّم الإنسانيَّة أنَّ الرَّجلَ العظيمَ النَّفسِ لا يكون في الحياة إلا ضيفاً نازلاً على نفسه .

ومن معاني ذلك الفقرِ العظيم : أنَّ خبز الشَّعير هو رَمزٌ من رموزِ الحياة على التَّحلُّل من خُلُقِ الأثرَةِ ، والبراءةِ من هوى التَّرف ؛ ورهنُ الدِّرع رمزٌ آخرُ على التخلُّص من الكبرياء ، والطَّمع ؛ والعُسرةُ رمزٌ ثالثٌ على مجاهدة الملَل الحيِّ الذي يُفْسِد الحياةَ ، كما يُفسد بعضُ النَّباتِ النَّبات . ومجموعُ هذه الرُّموز رمزٌ بحاله على وجوبِ الإيقاظِ النَّفسيِّ للأمَّة العزيزة التي تقود أنفسَها بمقاساة الشَّدائد ، ومجاهدةِ الطباع ؛ لتكونَ في كلِّ فردٍ مادةُ الجيش ، وليصلُحَ هذا الجيشُ قائداً للإنسانيَّة .

على أنَّه ﷺ حثَّ على طلب اليَسَار ، والتغلُّلِ من الأعمال الشَّريفة بالغَلَّة ، والمال ، فقال : « إنَّك إنْ تَدَعْ عِيالَك أغنياء ، خيرٌ من أن تَدَعَهم عَالَةً يتكفَّفون النَّاس »(١) . ورأى عابداً قد انقطع للعبادة حتى أكلتْ نفسه جسمَه ، ووصفوا له من زُهدِه وعبادتِه ، فقال ﷺ : « مَن يعولُه ؟ » قالوا : كلُّنا نعوله . فقال : « كلُّكم خيرٌ

---

(١) رواه البخاري (٣٩٣٦) ومسلم (١٦٢٨) .

منه ! . . . »[١] إلى أحاديثَ كثيرةٍ مرويَّةٍ ، هي تمام القانون الأدبيِّ الاجتماعيِّ في الدُّنيا ، تثبت : أنَّ الحيَّ إنْ هو إلا عملُ الحيِّ .

ولكن حين يكون سيِّد الأمَّة ، وصاحبُ شريعتها رجلاً فقيراً ، عاملاً ، مجاهداً ، يكْدَحُ لعيشِه ، ويجوعُ يوماً ، ويشبعُ يوماً ، فلم يقلِّبْ يدَه في تِلاَدٍ[٢] من المال يرثُه ، ولم يجمعْهما على طَريفٍ[٣] منه يُورِّثه ؛ فذلك هو ما بيَّناه ، وشرحناه ، وذلك كالأمر نافذاً لا رُخْصَةَ فيه ، على ألا يتخذَ الغنيُّ من الفقير عبداً اجتماعيّاً لفقرِ هذا ، ولمال ذاك ؛ بل هي المساواةُ النَّفسيَّة ، لا غيرُها ، وإن اختلفت طبقاتُ الاجتماع . والأكرمُ هو الأتقى لله بمعنى التَّقوى ، والأقومُ بالواجب على معنى الواجب ، والأكفأ للإنسانيَّة في معاني الإنسانيَّة .

فقرُ ذلك السَّيِّدِ الأعظم ليس فقراً ، بل هو كما رأيت : ضبطُ السُّلطةِ الكائنةِ في طبيعةِ التملُّك ؛ لقيام التعاوُنِ الإنسانيِّ على أساسِه العمليِّ ؛ هو المحاجَزَةُ العادلةُ بين المصالح الاقتصادية الطَّاغية : يمنع أن تأكلَ مصلحةٌ مصلحةً ، فتَهلِكَ بها ، ويُوجِبُ أن تَلِدَ المصلحةُ مصلحةً ؛ لتحيَا بها .

والنَّبيُّ الفقيرُ العظيمُ هو في التَّاريخ ـ من وراء كلِّ هذه المعاني ـ كالقاضي الجالس وراء موادِّ القانون . ﷺ .

* * *

(١) رواه سعيد بن منصور في سننه (٢٩١٩) وانظره في : كنز العمال (٢٠٤٤٢) .
(٢) « تلاد » : التِّلاد : المال الأصلي القديم .
(٣) « طريف » : الطَّريف : المستفاد من المال حديثاً . ويُقابله : التليد .